

الوباء بين النائية والجائحة في المخيال الجمعي ببلاد المغرب من القرن 14م-19م

The epidemic between the representative and the pandemic in the collective imagination of the Maghreb countries from the 14th century to the 19th century

ايمان عتيق

جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس (الجزائر)، atigim067@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/10/30

تاريخ القبول: 2020/10/20

تاريخ الاستلام: 2020/05/30

ملخص

إن بلاد المغرب كباقي المناطق الأخرى لم تكن بمعزل عن الكوارث والنوائب خاصة ما تعلق منها بالأوبئة والأمراض الأشد فتكا للبشرية بحيث أن جائحة كورونا جعلت لنا فضول البحث عن تاريخ الأوبئة وأثرها على ذهنيات وسلوكيات الناس آنذاك وبالتالي معرفة ما انتجه العقل من صور وأفكار وبلورة لتمثيلات ذات مناحي وتأويلات عديدة حول المصائب واندرج بحثنا ضمن المحور الثالث الطاعون والأوبئة في المخيال الشعبي

كلمات مفتاحية: النائية والجائحة – الوباء – المخيال الجمعي في (ق 14م-19م).

Abstract

The countries of the Maghreb, like other regions, were not isolated from disasters and episodes, especially those related to epidemics and the most deadly diseases of humanity, so that the Corona pandemic made us curious about the history of epidemics and their impact on the minds and behaviors of people at that time, thus knowing what the mind produced of images, ideas and crystallization of representations with walks and interpretations Many about calamities, Our research was included in the third axis Plague and epidemics in the popular imagination

key words: The calamity and the pandemic - the epidemic – the collective imagination in the (14th-19th century)

مقدمة:

إن البحث في تاريخ الأوبئة والأمراض ببلاد المغرب في الفترة ما بين القرن 14م والقرن 19م يجرنا للنظر حول التصورات المتشكلة في تلك الحقبة وكيف كان التعامل مع الوباء؟ فالنتائج الوخيمة التي انجرت عن الطاعون مثلا جعلت الناس يبحثون عن سبل الخلاص والنجاة بشتى الوسائل وهنا فالمتخيل متشكل تاريخيا في الذاكرة الجماعية بتلك المنطقة للأمراض والأوبئة التي كانت في القرون الماضية لتستثار كردة فعل فإما يكون المتخيل نقيضا لما هو واقعي او يكون قريبا من الواقع من خلال التخييل المعقلن فالعالم الخارجي ليس مشكلا فقط من الانساق الفيزيائية البعيدة عن الوعي ولكن متشكل أيضا من عناصر رمزية مجردة كالأساطير واللغة والفن والدين...تعتبر كنسيج من التجارب عبر الزمن ولها تأثير على الفرد في امثاله لطرق العلاج والنجاة وفيما يلي سندرج قراءة سوسيوانثروبولوجية للأوبئة في المخيال الجمعي آنذاك

1. مفاهيم:

1.1. النائية والجائحة:

التعريف اللغوي

من الناحية اللغوية النائية: (وهي ما ينوب الانسان أي ما ينزل به من الملمات والحوادث) (بياض، 2008، ص.18)

والجائحة في اللغة وهي الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال وقد يدخل في معناها كذلك الاستئصال لأنه من الاجتياح يقال جاحتهم السنة جوحا وجياحة واجاحتهم واجتاحتهم أي استأصلت أموالهم ومن خلال ما سبق يمكن ارجاع معنى الجائحة الى كل ما استهدف أموال الناس ومشتقاتها من مصادر العيش وموارد الرزق والمعاش وهو ما يعبر عنه بالمصيبة تصيب الانسان من الدهر وهو الامر المكروه ويقال اصابهم الدهر بنفوسهم واموالهم أي جاحهم فيها ففجعهم (بياض، 2008، ص.18)

التعريف الاصطلاحي

جائحة او النائبة هما مصطلح يقترب ان يكون متطابق المعنى يستخدم عادة على نطاق واسع لوصف أي مشكلة خرجت عن نطاق السيطرة، فتمس الانسان ومصالحة الاقتصادية وتلحق به الضرر كما انها في اغلب الأحيان ليست من فعله بل نازلة مصدرها قوة جبارة بها ملومات وحوادث وشدائد على الناس

2.1. الوباء:

التعريف اللغوي

(وباً) الْوَبَاءُ الطاعون بالقصر والمد والهمز وقيل هو كلُّ مَرَضٍ عَامٍّ وفي الحديث إن هذا الْوَبَاءَ رَجَزٌ وجمع الممدود أَوْبِيَّةٌ وجمع المقصور أَوْبَاءٌ وَقَدْ وَبَلَّتِ الْأَرْضُ تَوْباً وَباً وَوَبُوَاتْ وَبَاءً وَوَبَاءَةً. ومنه فالوباء

هو مرض ينتشر حتى يصل الى درجة التفشي فيخرج عن الحدود الجغرافية(بن منظور، لسان العرب، ص.189)

التعريف الاصطلاحي

الوباء له ارتباط وثيق مع الموقع الجغرافي، حيث أنه يعتبر انتشار واسع، مفاجئ، وسريع لمرض معين في موقع جغرافي معين، من خلال ارتفاع معدل انتشاره والإصابة به عن الحد الطبيعي في ذلك الموقع الجغرافي - ويعد الوباء معدياً - ويكون سببه غير موجود في المجتمع الذي أصابه، وينتشر الوباء عادةً بين البشر، وليس بالضرورة أن يكون الوباء مميتاً، ويسمى ما يقابله في الحيوان "سواف".

3.1. المخيال والتمثيلات الاجتماعية :

ان البحث في مفهوم المخيال ادخل الحقل السوسيولوجي في مرحلة انتقالية فيما يخص المواضيع المخيالية وذلك راجع لمدى تأثيره على سلوك الانسان

يعرف بيار الأنصار المخيال الاجتماعي: (الواقع ان أي فعل اجتماعي يفترض من اجل إنجازه ان يندمج كل سلوك فردي في عمل يحمل طابع الاستمرارية وان تنتظم التصرفات الفردية وتتجاوب بعضها البعض طبقا لقواعد ضمنية مستضمرة حسب ما ينتظره كل منها من الأخرى وبعبارة أخرى فان الممارسات الاجتماعية بوصفها تنظم شتات ترف الافراد وتوجههم نحو اهداف مشتركة تفترض وجود بنية معقدة من القيم وعمليات التعيين والاندماج المحمل بمعان ودلالات، كما تفترض لغة (شفرة) اجتماعية ومستضمرة ليست هناك أي ممارسة اجتماعية يمكن ارجاعها الى عناصر فزيائية ومادية ذلك لأنه يشكل ممارسة اجتماعية وانها تسارع نحو التحقق في شبكة من الدلالات يتم فيها استعاب وتجاوز الطابع الجزئي للتصرفات والافراد واللحظات) (بوال، 2001، ص.113)

من خلال التعريف السابق يمكننا حصر مفهوم المخيال على انه مجموعة من التصورات والتمثيلات التي ينتجها كل مجتمع لنفسه ففيه يتم توزيع الأدوار الهويات وهو جامع لأهداف الجماعة

وفي هذا السياق نفتح باب الحديث عن التمثيلات حيث يعتبر مصطلح التمثيلات قديم النشأة ، استعمل أصلا من طرف الفلاسفة وبالأخص عند كانط حيث يقول " أن مواضيع معرفتنا ماهي التمثيلات و معرفتنا للواقع الكلي هي مستحيلة " وكان قد نشر فكرة مفادها أنه من أجل المعرفة يجب الاهتمام بموضوع الدراسة والانسان الدارس (خالدي، 2006، ص. 39) ويتعلق التصور عند بعض الفلاسفة بفعل معرفي يربط شيء ما بموضوع ما مكونا بذلك تصورا ، فالواقع اذن لا يوجد الا من خلال النظرة التي يكونها الانسان حوله .

جاءت الدراسات حول التصورات الاجتماعية في علم النفس الاجتماعي مع العالم موسكوفيسي الذي قدم تفسيرا حول مفهوم التصورات الاجتماعية على اعتبارها ديناميكية و متطورة ، كما أنها منحصرة على بنى صغيرة ، فهي اذا كثيرة من حيث العدد وأكثر تنوعا ومحدودية و تجزئة ، ولهذا السبب تتغير بشكل أسهل و أسرع مقارنة بالتصورات الجماعية ، فعلماء النفس الاجتماعيون يرون بأن التصورات الاجتماعية من صنع الفرد ولكنها مكتسبة ومتقاسمة أيضا مع الجماعة ، لكن الجماعة في تصور

موسكوفيسي ليست هي المجتمع الأصلي ، و انما هي الجماعات الصغيرة التي ينتمي اليها الفرد. و نجد كذلك كل من موسكوفيسي و جودلر و كلنت يرو أن التمثلات تتشكل عندما تتفاعل مع الآخرين وعن طريق الاتصال بالواقع نتيجة لنشاط ما (خالدي، 2006، ص. 33)، وبالتالي التمثلات الاجتماعية هي نشاط وسيرورة فردية جماعية، ايدىولوجية فهي شكل من المعرفة المبلورة والمشاركة اجتماعيا ولها هدف ملموس في بناء الواقع المشترك لجماعة ما ، ويجب أن تعرف كمنتوج و سيرورة .

أما الباحثون السوسيولوجيون بمفهوم التمثلات، وكانوا سابقين الى توظيفه في دراساتهم على الكثير من التخصصات الاخرى الموجودة ضمن حقل العلوم الانسانية. الشيء الذي اكده أحد العلماء بدراسته لمؤلفات دوركايم حول أسبقية السوسيولوجيا على علم النفس حول موضوع التمثلات. وحسب الدراسات التاريخية لعالم النفس الاجتماعي موسكوفيسي حول مصطلح التمثلات توصل الى نفس الفكرة القائلة بامتياز الأسبقية لعلم الاجتماع في استخدام مصطلح التمثلات ولعل أول دراسة هي لعالم الاجتماع جورج زيمل الذي توصل الى دراسة فهم العلاقة الموجودة بين وضعية الفرد البعيدة عن الآخرين والحاجة الى تمثيل فزيمل يرى التمثلات نوعا من العملية التي تمكن من بلورة الأفعال المتبادلة بين مجموعة من الأفراد وتشكيل الوحدة العليا التي هي المؤسسة (الحزب، الكنيسة، ...)

من جهة اخرى فيبر يجعل من التمثلات اطارا مرجعيا لنشاط الأفراد حيث يقول " يتجلى أن هذه الوضعيات الجماعية التي تنتمي الى الفكر اليومي أو الفكر القانوني أو لأي تفكير متخصص (التمثلات لشيء ما تردد في عقول الناس ليس فقط، القضاة والموظفين بل كذلك الجمهور). حيث توجه نشاطهم وبنياهم ولها أهمية سببية معتبرة، بل مهيمنة من أجل السير الطبيعي لنشاط الأفراد الواقعيين " ويضيف هنا أن المعرفة المشتركة والمسبقة لها القدرة على تحديد نشاط الأفراد وبرمجتهم .

ويعترف موسكوفيسي بأن المستخدم الحقيقي للمفهوم في علم الاجتماع هو ايميل دوركايم الذي يقول " الملاحظة تكشف عن وجود نوع من الظواهر تسمى التمثلات وهي تختلف بولسة خصائصها المتميزة عن الظواهر الطبيعية الأخرى ، فمن غير المعقول

على كل منهج أن يعالجها على أنها غير موجودة.....هذه التمثلات لها أسباب وهي بدورها أسباب . " (Serge, 1972, p. 427.428)

ولقد استعمل مفهوم التمثلات عند بعض علماء الاجتماع في دراساتهم الحديثة بشكل ملفت للانتباه ومن هؤلاء بيار بورديو الذي درس المجتمع الجزائري وخاصة منطقة القبائل وتناول بالتحليل البنيوي لفكرة تمثلات القرابة والتمثلات التي تتولد عن علاقات هذه القرابة في المجتمع القبائلي ، فحسب بيار بورديو لا توجد علاقة اجتماعية الا وتوظف مجموعة من التمثلات من بينها علاقة قرابة وهي عبارة عن علاقات مهيمنة في المجتمع القبائلي لها وظائفها الخاصة وذلك من أجل مقاومة التمثلات الفردية التي تراها منحرفة (BOURDIER, 1972, p.p.95.96) ومن الدراسات الحديثة التي تهتم بمفهوم التمثلات تلك التي قام بها عالم الاجتماع الفرنسي ستوزل وهي عبارة عن مجموعات من التحقيق التي أقيمت في مجموعة من الدول الأوروبية حول التمثلات لبعض القيم المقترحة مثل النزاهة ، روح المسؤولية ، الايمان الديني وغيرها .

إن التمثل الاجتماعي : هو الكيفية التي ينظم بها الفرد فهمه للواقع وللحقيقة التي يعكسها وبتعبير آخر هو تنظيم فردي لحقيقة جماعية ولكن هذا لا يتم اعتباطيا و انما يستند الى أطر مرجعية تستمد قوتها من حضورها الفاعل ضمن مجالات عديدة في المجتمع ، بمعنى أن الرموز التي يستند اليها الفرد هي تشكيل صورة ذهنية عن موضوع أو عن حدث غائب يستحضر العقل حاليا ، هي في الواقع الأمور والرموز محددة تاريخيا ، ثقافيا واجتماعيا . وهذا يؤكد أن المعايير تمثل أهم مكونات التمثل الاجتماعي ، والتمثل هو من أشكال المعرفة الاجتماعية التي تمكننا من التفاعل مع الواقع اليومي ، وعندما يتحول هذا الواقع الى تمثل فإننا نقوم ببنائه وإعادة بناءه بشكل آخر يختلف في شكله الأصلي .

جهة أخرى التمثل الاجتماعي هو فعل فكري أو ذهني من خلاله يتم الربط بين شخص وموضوع و بطريقة أخرى هو إعادة انتاج ذهني لشخص ، أو شيء أو حدث مادي أو معنوي و التمثل الاجتماعي مرتبط بصورة ومعنى. (JODLET, 1989)

وللتمثلات أبعاد اجتماعية نذكرها كالتالي :

المواقف : دراسة مواقف الطلبة اتجاه الشهادة الجامعية ، والموقف هو عبارة عن تحضير لسلوك ما ، أو مخطط ديناميكي لنشاط الفرد ، فهو خبرة مخططة ومنظمة في اطار أهداف معينة ، فالمواقف قد تكون سلبية ، أو ايجابية أو غامضة ...

المعلومات : هي عبارة عن تنظيم المعارف التي يكتسبها الفرد أو الجماعة حول موضوع ما ، وقد يتم تحديدها بطريقة كمية أو كيفية ، وغالبا ما تحمل هذه المعلومات أحكام مسبقة ومنه فهي البيانات المصوغة بطريقة هادفة لتكون أساسا لاتخاذ القرار ، فهي عملية أساسية في اتخاذ القرارات التي قد تكون بلا معنى لشخص ما ، وذات معنى لشخص آخر ، وقد تكون تمثل المعلومات حقائق أو تقديرات أو توقعات ، أو خليطا من بعض أو كل هذه الصفات ومن هنا نحاول أن نعرف المعلومات التي يمتلكها الطلاب حول الشهادة الجامعية .

المجال : الحيز الكلي الذي تعمل فيه مجموعة من القوى وبنية المجال هي العوامل والعلاقات التي تحدد المجال ، ونظرية المجال هي نظرية في علم النفس الاجتماعي ، تنظر الى الكائن الحي على أنه كائن حي في مجاله وتحاول أن تنظم وتفسر الوقائع السيكوسوسيولوجية على النحو الذي تنظم به مجالات القوى في علم الطبيعة ، وتحل الأحداث محل القوى ، وبالتالي فالمجال هو المكان الذي تتبلور فيه التمثلات وتنشط ، فمكان التمثلات التي يشكلها الطلاب اتجاه الشهادة الجامعية هي تلك المؤسسة التي تسمى بالجامعة ككل له وحدات مختلفة أين تنمو وتنحت هذه التمثلات وهذه الأبعاد تمكن من اكتشاف مستوى التمثلات (Serge,1972, p. 436.428) .

أما اذا رجعنا الى المخيال فنجد في المقاربة السوسيولوجية الانثروبولوجية لبيير دوران قد اعطى تعريفا للمتيخل فقال ان المتخيّل ليس الانماذج اصلية ترميزية وميثولوجية محدد برمزية الانسان في مواجهته للزمن وتحولاته ذلك ان المتيخله تنظم الزمن وتقيسه وتؤثته بالأساطير والخرافات التاريخية وبهذه السمة لتغذي الزمن (بوال، 2001، ص.119)

وهذا ما سنسعى معرفته فيما يخص الوباء في المخيال الجمعي في بلاد المغرب ما بين القرن 14م والقرن 19م.

2. الوباء في المخيال الجمعي في بلاد المغرب:

تم ظهور وباء الطاعون الأسود في شمال إفريقيا بالفترة المتراوحة ما بين 1347م و1352م وطال به الأمد بهاته المنطقة حتى حوالي عام 1894 بعد اكتشاف لقاح ضده على يد الطبيب السويسري الكسندر يرسن ومنه في الفترة الانفة كانت هناك العديد من التغيرات الديموغرافية والمخلفات الاجتماعية والنفسية وهذا ما نجده عند ابن خلدون في وصفه للوباء عن هول الجائحة قائلا (انتقص عمران الأرض بانتقاص البر.....) وخلاء الديار والمنازل... وتبدل الساكن.. (نشاط، موقع وجدة سيتي <https://www.oujdacity.net>)

هذا كله كفيل بان لا تكون حركية المخيال الجمعي بهاته المنطقة عفوية او اعتباطية بل خضعت الى نظم واليات تعود أساسا الى مدارات الرموز التي تبناها آنذاك وهذا من خلال عدم اهتمامهم بالوباء وعدم استعمالهم أي دواء باستثناء التمسح بتراب الاضحية حول دمل الطاعون

وفي مجتمع يحكمه المقدس كان اللجوء الى المتصوفة امر مطلوباً من اجل الاستشفاء (الكرامات) وهنا نجد ان المتخيل كان مرتبطاً بالطقوس الدينية والاساطير الخرافية كالأخذ (بماء وحناء كعلاج للتشافي من المرض) (نشاط، موقع وجدة سيتي <https://www.oujdacity.net>)

إن ردود فعل الانسان السلوكية لجائحة وباء الطاعون الأسود اخذت منحنيين:

المنحى الأول هو أن الوباء امر مقدر حل بالناس نتيجة اقترافهم الحرومات والمحظورات والفساد الأخلاقي وبالتالي المتحكم في صياغة تمثلات المخيال الجمعي هو البعد الديني فاعتقدوا انه عقاب الالهي لأفعالهم الغير مقبولة

المنحى الثاني فكانت له معطيات تجريبية لتفسير أسباب اجتياحه بلاد المغاربة وابن خلدون مثل ذلك في مقدمته حيث اقرن الوباء بفساد الهواء بكثرة العمران وما يخالطه من رطوبة ومن عفن) (نشاط، موقع وجدة سيتي <https://www.oujdacity.net>)

إن الهلع الذي تذرّفه النوائب والجائحات عند أغلبية الشعوب تجعلهم يبحثون عن سبل الخلاص أيا كان مصدرها مما جعل الناس ببلاد المغرب يتجهون الى رجال المتصوفة كمسلك للعلاج ومنهم من اخذ الاعتزال كوسيلة للاحتراز مرده اعتمادهم على مرجعيات دينية التي تحث على الاعتزال قدر المستطاع لتفادي العدوى وهذا ما يسمى بالحجر الصحي الذي التزم به الناس آنذاك

حقا الايمان بالقضاء والقدر في تلك الحقبة كان مسيطرا على العقول وتبلور الأفكار والتصورات بصفة عامة واختلاط الخرافة بالطب في اغلب الأحيان بحيث كانوا يؤمنون بالتداوي بالشرب من ماء البئر أو تعليق تميمة أو بزيارة ولي بحثا منهم على الشفاء من الاسقام والامراض والابوئة وغيرها

وتأكيدا على فكرة الحجر الصحي فقد ذكر أبو قاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الثاني ان الحاكمين آنذاك لجأ الى الحجر الصحي بالجزائر عندما يعلمون بانتشار الطاعون والامراض المعدية في احدى السفن الداخلة لجزائر وذلك حفاظا على الصحة العامة (أبو قاسم، 1998، ص.418)

خاتمة:

وما يمكن استخلاصه مما سبق ان الجانب الديني غالبا ما يكون المحرك الأساسي لتمثلات الأفراد بتلك المنطقة اثناء تعرضه لما يهلك بدنه ويفتكه كمثال الأبوئة والامراض المعدية خاصة اذا طال بقاءه بمنطقة معينة ولم يجدوا له الدواء وبالتالي يتجهون الى التذرع والتوبة والتسامح كقيم افرزها المخيال باحثا عن إعادة انتاج نفسه في مسارات السلوك الإنساني مع الطبيعة والمحيط فقيمة الصفة الخيالية تكمن فيما تكشف عنه من المشاعر والتفكير الاسطوري للإنسان وهذا ما يطلق عليه بالمسار الانثروبولوجي الذي ينتج التفاعل بين الحركة والمحيط فرغبات وتصورات الفرد ماهي الا نتاج لمحيط تاريخي واجتماعي.

قائمة المصادر والمراجع:

1. بياض عبد الهادي ، (2008)، الكوارث الطبيعية وتأثيرها في سلوك ذهنيات الانسان، بالمغرب والاندلس (ق12م-ق14م)، ط.1، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت
2. بن منظور، لسان العرب ، ط.1، دار صادر للنشر والتوزيع، بيروت، <https://khutabaa.com/>
3. بوال محمد ، (2001)، من المخيلة الى المخيال دراسة في تاريخ المفهوم، مجلة الوحدات للبحوث والدراسات، الجزائر، العدد13،
4. خالدي محمد ، (2006)، تمثلات السلطة التنظيمية لدى عمال الصناعة بالجزائر، رسالة لنيل شهادة الماجستير غير منشورة في علم الاجتماع تنظيم وعمل، الجزائر.
5. نشاط مصطفى، تجارب المغاربة مع وباء الطاعون الاسود (749هـ/1348م)، موقع وجدة سيتي <https://www.oujdacity.net> اضطلع عليه يوم 2020/04/14
6. سعد الله ابو قاسم ، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي ج2 (1500م-1830)، ط.1، دار الغرب الاسلامي للنشر، بيروت
7. BOURDIER pierre, (1972) , Esquisses d'une théorie de la pratique, Editions Du seuil, Paris
8. JODLET Denis, (1989), Les Représentations sociale , P.U.F Paris
9. Serge Mocovisi, (1972), Introduction a la psychologie sociale, maison des sciences de l'homme(MSH) , parais